عبدالعزيز محمد داؤود

تأليف

البروفيسور علي محمد علي الملك

اعداد

Alshadin @ alrakoba

الإهداء

إلى حليمة سليمان

أمي أنها كانت تنشد المديح النبوي

ترانيم في أشغال يومها

والى الشيخ محمد علي الملك

أنه أدخلني في فراديس

لغتنا الجميلة....

ثم إلى خالي علي سليمان

فقد تعلمت منه

كيف يكون العيش

في أم درمان صبابة...



مولد زهرة الروض الظليل

مساء السبت الرابع من أغسطس ١٩٨٤م مات عبدالعزيز محمد داؤد، كان بدأ رحلته في طريق الأبد مساء الجمعة، وانطلق الموت يلهث إلى قلبه الكبير، فمصير القلب الكبير إلى لهاث، وارتاح الموت حين أسكته، لم اصدق كل ما حصل، وبعضه قد شهدت، ولم اصدق، في يوم الجمعة التي بدأت فيها رحلة الموت كنت مدعواً في بيت أحد الجيران، والدعوة غداء والنهار حار ومضجر، لا اعلم، تباطأت شيئاً، ولكني ذهبت علي كل حال، وجدت خلقاً كثيرين، كان منهم أحد المغنين، ودأبه كان تقليد أداء عبدالعزيز، ولكنه بون شاسع، قال يبدي تظرفاً امقت صنوفه (صاحبك صوته خف) قلت بحدة (صاحبي منو؟) قال (عبدالعزيز داؤد) قلت ساخراً (ما هو أنت موجود!) ضحك القوم ضحكاً كثيراً، تشاءمت، أكلت في عجلة، عدت للبيت، وحدي كنت، وفي التلفزيون وجدت ألواناً من مسابقات الأولمبياد في لوس انجيلاس، لم تفد حالتي كثيراً، اعرف الاكتئاب النفسي يقيناً، كنت لا اعلم من أمره، الاكتئاب، كبير شيء، ولكن الأزمنة الصعبة، والتمرس بمقابلة المكاذبين يبدون، أول أمرهم، براءة أطفال، هد من صلابة النفس ونقائها كثيراً. عرفت الاكتئاب إذن. يقيناً. والجمعة ٣ أغسطس كان يومه.

وحين بدأت شمس النهار بالإخفاق أبصره حيث كنت في البرندة، سمعت حركة أقدام، ثمة من يصفق، نهضت من موقعي، فتحت الباب، أمامي كان عثمان محمد داؤد، أحييه في حماسة، ثوان وتخال دهوراً، لعله كان يود يختزل مجاملات التحية الطويلات ليقول لي شيئاً أهم كثيرا من مجاملات السلام. توقف السلام، قال (صاحبك جه من الأبيض عيان جداً) تركت التلفزيون يحفل بالعدو والملاكمة والسباحة وانطلقت معه نبحث عن طبيب، وعدنا صديق طبيب أن يتبعنا، ذهبنا إلى الخرطوم بحري، ما أنكرنا حي الدناقلة، كان بي حفياً منذ أن جعلته وطن الوجدان يكون في دار عبدالعزيز، ذلك كان في أخريات الخمسين، جسر مطمئن علي الخور يفضي إلى زقاق فيه دار عبدالعزيز، لا اعلم لماذا تفرست في معالم الجسر الصغير في ذاك الموعد من ذاك اليوم ولأول مرة! فوقه حصى، وعليه مع الحصى تراب، وكان يضايق السيارة انه علي حافي الجسر تكون دائماً مجموعة صبيان، أقدامهم تزيد ضيق الجسر ضيقاً تخال أحياناً، إن أقدامهم تدعو إطارات السيارات أن تدهسها، تارة ينهضون من مجالسهم برمين، وأحياناً بذوق حسن، في ذاك الموعد من ذاك اليوم لا صبيان ولا أقدام صبيان، ليس هناك من شيء علي الجسر إلا الحصي وإلا التراب، صرنا إلى البيت،

ثوان وتخال دهوراً، بعد الباب المضياف، وجه عبدالعزيز، كان جالساً علي كرسي، اسند ظهره علي وسادات، تعبن علي قليل من راحة يحتاجها قلب متعب مجهد، مرهف، أنفاسه تجعل من جلابيته شراعا تعبث به الريح وتنفخ فيه، لا تسعفه الأنفاس المبهورات، لم يتعود هذا الإنسان الرائع أن يصمت، هش لي وبش، وضعت اكتئابي بين يديه، دأبي منذ أن عرفته، يعرف ما يضايقني قبل أن أبوح به، نظر إلي، ضحك ضحكاً صافياً هزم به الأنفاس المبهورات قال (أنت لسع محافظ علي جلابيتي الجبتها ليك؟) ضحكت بصفاء جعل الاكتئاب المر يتساقط من خيوط الجلابية، يغادر نفسي، جلست انظر إليه، تذكرت لحظتها زماناً في الستين وكنت اعد نفسي للسفر للدراسة في أمريكا. جاءني عبد العزيز وأهداني جلابية زرقاء اللون وفصلتها وحملتها معي، وحين عدت إلى الوطن سألني؟ ماذا أحضرت معك، إن شاء الله جلابيتي رجعت معاك؟) ضحكت، قلت (والله يا أستاذ كل الجبته معاي اسطوانات وفونوغراف) قال (بس! مرحب الغاب وجاب)!

قبل عصر الجمعة ذاك، بأسبوع أو نحو أسبوع، زرته في البيت، أوان لمنيب، كانت الحمى قد استقرت بجسده، ولحظت تورما في ركبته، جنته، كان يسال ملحفاً عن أغنية الحاج سرور (يجلي النظر يا صاح)، جودت نصها، جعلت أغريه بالترنم، كان علمني شيئاً من مذهبه في الغناء، سنين طويلات، كمفت مثل ظله اتبعه، أغني على استحياء امسك صوته المذهل أغنية سرور، يتحسس مداخلها ومخارجها، كان الأغنية لديه محبوبة يغازلها، ثم تلين، ترق، تتداعى، تكون هو، ثم يكونها صدح (في الضي جبينو النادي والبدر خلان يجمع لطافة ورقة ونفرة الغزلان).

جلست انظر إليه، لم أكن أعلم إني أشهد طرفاً من ساعاته الأخيرات، وهو جالس أمامي، صدره يعلو سريعاً ويهبط سريعاً، أردت أن أقول له إنني لم اكن مقتنعا بسفره للأبيض، لأنه كان مريضاً بحمى وبيلة، عرفت حدتها حين جعلت يدي على جبينه، أصرت عايدة عبدالعزيز ألا أترك أباها يسافر للأبيض، كانت قلقة ليلتئذ وقد زايلها مرح معهود في أسرة ربها واتسم بالمرح، حدثتني ماجدة عبدالعزيز مرة أن والدها قال لها نكتة يبدو انه ألفها في حينه قال يا ماجدة سمعتي بالجدادقس الاستضافوها في الإذاعة، قالت ماجدة: (لا) قال (اكمل ليك القصة الجدادة دخلت الأستوديو، وبعدين كالعادة شكرت الإذاعة على إتاحة الفرصة، واتكلمت عن مزارع الدواجن، والأوبئة، وحياة الجداد في البيوت أيام زمان،

واتكلمت كويس.. وبعدين المذيع كالعادة قال ليها تحبى تسمعي أغنية شنو؟ الجدادة ما أتلفتت قالت احب استمع لأغنية: في الليلة ديك !!).

ما توقفت لحظة، رفضت رجاء عايدة، لأني كنت أعلم أن عبدالعزيز إن قد قر رأيه على شئ استقر عليه وفعله، إذن فرجائي ألا يسافر مرفوض سلفاً، بحثت في عينيّ لا أمل طأطأت رأسي وخرجت مسرعاً اضرب في الليل لحين أن استدعاني عثمان داؤد عصر الجمعة تلك.

كنت انظر إليه إلى جلابيتي الدمورية، أحاط بها البلى كل جانب تتماسك جميلة في شيخوختها، تكون الدمورية جميلة الشأن رقيقة الملمس حين تدنو من الهلاك، كان كلام عبدالعزيز متقطعاً، رجوته ألا يتكلم. شعرت بثقل المرض الذي احتمل، عاد الاكتئاب إلى نفسي، غمر جيوب الجلابية، تقافز يعود إلى مواقعه. قلت إن الطبيب قادم، هز رأسه، مضيت لحالي.

أمسيات عدداً قبل ذلك كان بدأ يتدرب على ما اسميه (برنامج عتيق) وهو يشمل مختارات من أغنيات للشاعر محمد البشير عتيق، وقد الفت حنجرة عبدالعزيز شعر عتيق منذ عهد ليس بالقصير، غنى له (ما بنسى ليلة كنا)، بتفريغ نغمى على لحن كرومة، ثم تناول القصيدة الصعبة (قم نرتشف خمر الهوى) وأخضعها لسلطانه، ومن بعد تلك (أول نظرة) واذكر يوم كان تسجيلها بالإذاعة، لم نكن نعرف النص تماماً، اتصلت في نحو الظهر بعتيق في المدبغة الحكومية حيث كان يعمل عصرئذ، وعن طريق سيف النصر عمر عثمان عازف الكمان، وجاء صوت عتيق على التليفون، أملى عليّ كلمات قصيدته، جاء صوته يزدان بوقار السنين، يملى دون خطأ، في ثبات، قصيدة كان نظمها في مطالع الأربعين، عاد حين نشر ديوانه في هذا العام (١٩٨٧) يثبت على صدرها عام نظمها ١٩٤٢، ويكتب يقول (رأيتها وهى جالسة على سباته العرس بين أترابها فكانت أول نظرة)، صوته جاء عبر التليفون (الحيا والنضرة والتيه والجبره هم مصدر شوقى، ومصيبتى الكبرى، بالحب ابلانى، وكمان خلاني)، دخل الموسيقيون إلى الاستديو، الساعة الثالثة بعد الظهر، ينتظرون الاشارة كيف لحنها: أول نظرة، بدأ عبدالعزيز يدندن بشىء ليس من تلك الأغنية في شئ، اضطربت شيئاً، جريت الى مكتبة الاذاعة جئت باللحن عل صوت أولاد الموردة، عطا ومحمود عبدالكريم استمعنا اليه مرة واحدة، رسخ في أوتار الكمنجات، التقطه عبدالعزيز، وجعل

يستعمره شيئاً فشيئاً وتم التسجيل بالصورة التي تعرفون الآن.

وأنا أنظر إليه: أيمكن أن يخرس المرض هذا الصوت، أو هذا الرجل الذي ما عهدت نفسه صمتاً طوال حياته فهو إما يتكلم أو يغنى، كانت نظراته بعيدا سابحات، والجلابية خلتها شراع مركب تستبد به الريح، تعلو وتهبط مسرعة: الحالتين كلتيهما.. هل يعقل أن يصمت هذا الصوت المذهل عن الغناء لحظة؟

وأنا إليه انظر: كنا نذهب إلى المنطقة الصناعية أي واحدة من المدن الثلاث تكون، بسبب أو بلا سبب، كان الحرفيون والصنايعية صناع الحياة يتجمعون حين يبصرون بسيارة عبدالعزيز، يصيحون به جماعات، على ملابسهم الزيت والشحوم والغبار، وحر الأسقف الزنك يلوذون منه بظلال النيم إذ يبدو انه لا شجر ينبت مواقع الحديد والشدة سوى النيم، تتوقف سيارته وينطلقون إليه وإليها، جماعة تطلب نكتة، وأخري حكاية وثالثة تطلب (زهرة الروض الظليل). ويغنى ويؤلف نكتة على الفور، ويترك في المناطق الصناعية سعادة كبيرة. وما قصة زهرة الروض الظليل؟ في بدايات الستين مات على أبو الجود رحمه الله، وكان الرجل من أساطين الغناء، في عهده (طابق) كرومة عهدا ليس باليسير ثم استقل بغنائه، كان له صوت قوى عريض المساحة، وكان له في مجال تشجيع فريق المريخ باع طويل، وقرر معجبوه الأوفياء أن يقيموا له حفل تأبين على مسرح النادي الذي احب. روى الرواة أن على أبو الجود وجماعته كانوا يشهدون مباراة حامية الوطيس بين فريق المريخ وفريق الشاطئ. جاء فريق الشاطئ قوياً، متحمساً، وبرز من لاعبيه حارس المرمى بصورة. رائعة، وامسك بكل الكرات التي صوبت نحوه. نذكر أبو الجود أن هذا الحارس من اكثر خلق الله حبا لكرومة ولفنه يتبعه أنى ذهب، رجل طربي من الطراز الأول. انتهى شوط المباراة الأول، هتف على أبو الجود بالناس (يا عالم ما في زول في الهاشماب عنده رق)؟ بين الهاشماب ودار الرياضة شارع الموردة لا سواه، كان المريخ مهزوما بثلاث إصابات، انطلق مريخابي كالقذيفة إلى حي الهاشماب واحضر رقا، بدأ الشوط الثاني، مضى أبو الجود وجماعته وجلسوا خلف شباك حارس مرمى الشاطئ، وصدحوا بالغناء (الرشيم الأخضر، زهرة الروض الظليل، نسيم سحرك، جوهر صدر المحافل) الخ هذا الغناء العذب، ثم جعل الرجل يتداعى، يفقد توازنه طربا الله ! الله ! ورماة المريخ يسجلون، عصمت معنى، طلب مدني، أبو زيد العبد، وانتصر المريخ آخر الأمر. لم يكن عبدالعزيز يعلم شيئاً عن حفل التأبين، كنا نزور

صديقنا الحميم حسن يحي الكوارتى في داره بحي العرب، منطقة ونصيبها من الشعر والغناء حق وفير، قلت له بعد أن هبط الظلام (يا أستاذ نمشى نادى المريخ لحضور حفل تابين على أبو الجود) وافق على الفور، ذهبنا، في الطريق عجبت لهذا الرجل، دائماً للغناء مستعد، ولإسعاد الآخرين يتأهب، قلت لنفسي: من يعزف له؟ ماذا يتوقع أن يكون بانتظاره في نادى المريخ؟ أشرفنا على الموقع، كان محتشداً بالناس، مجموعة من أهل غناء الحقيبة، قدامى ومحدثين، قدموا خير ماالديهم في ذكرى زميل وعزيز، جاء دور عبدالعزيز، صعد خفيفاً إلى المسرح، دأبه، صمت الجمهور يحتشد بالأذان، لم يقل إنه سيقدم أغنية بعينها، ولا أغنيات بأعيانهن، أخذ الرق من أحد المغنين بيد، ثلاثة أو أربعة من الكورس وقفوا خلفه، ما درى أولئك إنهم، وللتاريخ، أمسوا على مشارف مولد أغنية لدى عبدالعزيز، ما كان قد حدثنا عنها قط، ما ترنم بها قط، نكون في سيارته نجوب الطرقات، كثير أحيان، بلا هدف ولا هدى، إذ ذاك يكون الغناء والطرب ونكون محاولات التنغيم التي لم يبلغ علياءها من معاصريه أحد. الرمية أولاً، طال صمت الأذان تحتشد: هيا (الجرحو نوسر بى، غور في الضمير، فوق قلبي خلف الكى، يا ناس اللّه لى): صياح مذهل أمطار متجمة من الطرب يعب منها الجمهور لحين يثمل نشوان، ثم (يا زهرة طيبك جانى ليل، أقلق راحتي حار بى الدليل، زاد وجدي) هناك جاء مولد زهرة الروض الظليل، (كرومة الأصلي) كما يقولون، إحدى أغنياته الخالدات، كرومة الأصلي، كما أتصور مع كلمات صالح عبدالسيد أبو صلاح، وكلمات عمر البنا وأشعار عتيق. خرجنا من الحفل والجمهور المحتشد يصفق لنا في حماسة كأنه يظاهر فريق المريخ، برعى وابراهومة وجقدول.

وأنا انظر إليه: كيف يصمت هذا الصوت الذي هطل سعادة على كل شبر في الوطن على مد بضع وأربعين سنة، مرة كنا في اتحاد الفنانين، في الدار كانوا يحتفلون بثورة أكتوبر، كل الفنانين الكبار اشتركوا في الحفل، جاءنا حيث كنا نجلس آخر الصفوف، عبداللّه حامد العربى عازف الكمان المجيد. قال لعبدالعزيز (سمعت انك مريض ولن تستطيع الغناء) رد عبدالعزيز (المرض بحمى الغنا؟).. ضحكنا قام قال (سأغنى لكم ثنائي مع الكابي) اتفق المطربان، صعد عبدالعزيز إلى المسرح، كان الزعيم إسماعيل الأزهري يشهد الحفل، كان سعيداً جداً، تقدم عبدالعزيز إلى المايكرفون، قال يخاطب الزعيم (حيغني ليكم اثنين من أولاد بحري، ثنائي، الكابي وأنا، بلاك آند وايت)! كان بشير عباس في

مقدمة الأوركسترا، والخليل، وتم دور واتدور. وأنا انظر إليه: في ذلك المغيب الكئيب، هل يمنع المرض الغناء؟ والكلام هكذا؟ في مثل هذا الوقت منذ بدايات عام ١٩٨٤ م كنت اختلف إليه، قررنا أن نعالج قصائد عتيق المشهورة، اختلفنا حول بعضهن، كان عبدالعزيز لا يحب أغنية (كلما اتاملت حسنك يا رشيق) بينما كنت أودها وداً شديداً، وكان يريد أن يغني (بدر لي حسنك سحر) وكنت لا أودها وأخيراً حذفنا الاثنتين، وكان بدأ يتدرب على أغنية (يا نسيم باللّه اشكي له) وجعل يؤديها بصورة مدهشة جداً، وقرر أن يزحف بكنوز عتيق إلى الإذاعة، كان عبدالعزيز لا يفعل ما يفعله كثير من المطربين، لم يكن يطلب أجورا عالية من أجهزة الإعلام، كان يريد أن يغني بما يسعد الناس في هذا البلد الرحيب. ولما سجل مجموعة من أغنيات الحقيبة في مطلع السبعين تقاض عن كل أغنية بضعة وثلاثين جنيها، فاعجب ! ومثلما قال سامي ديفز حين مات نات كنج كول انهم كانوا لا يقربون أغنية غناها، قال ديفز إن كول كان يضع بصمته الفريدة وأداءه. الأسر على كل الأغنيات. قال لي عبداللّه عربي انه يظن أن في ظهر عبدالعزيز مكبرات صوت حبته بها الطبيعة، قال صديقي عاشق اللحون معقبا (عينو حارة ود القطينة!!) لم اكن اعلم مدق ما ذهب إليه سامي ديفز إلا حينما اختطف عبدالعزيز أغنية (ذكرتني) من عثمان حسين، وعثمان جالس إليه ينظر في سعادة، ثم جعل يغنيها بما اطرب صاحبها غاية الطرب، و غير هذا كثير.

صباح السبت ٤ أغسطس ١٩٨٤م كان ذاك العام بما فيه وما انقضى منه ثقيلاً بأحداثه، بطوارئه، وقضاة طوارئه، وقد استحال بذلك إلى قرن من الزمان كان حكمه الواحد هو كاليجولا وجنكيزخان، وسوموزا، آه صباح ذاك السبت طرت إلى الخرطوم بحري لحين أن بلغت دار عبدالعزيز كان الطبيب قد عاده في المساء، ووصف له دواء، أفاده شيئاً حين اطل الصباح، لعل أنفاسه هدأت بعض شئ حين رأيته قلت (الحمد للّه) ثم عدت إلى طاحونة الحياة اليومية. في العصر أيضاً جلست وحدي أشاهد الألعاب الأولمبية، تتفجر معها ذكريات لوس انجيلاس عهود الصبا، اخفق الضوء الأصيلي فصار إلى ضوء باهت وأطبق المساء عل روحي، هذا اكثر لحظات اليوم كآبة عندي، وقع أقدام.. ثمة من يصفق، وثب قلبي إلى فمي، أهذا طعم الفجيعة؟ جاء إلي.محمد احمد حمد زميل دراستي، وجار عبدالعزيز، أهناك وقت للتحية؟ نظرت في وجهه، لحظ في وجهي، لا ريب، أثر الفجيعة يوشك هو أن يطلق عنانها خبرا. قال إن عبدالعزيز حالته خطيرة، ذهبنا إلى الطبيب ما

وجدناه، وقال لي انهم حملوه إلى المستشفي في بحري، قلت له (انطلق بي) حين وصلنا إلى المستشفي لم يكن على أبوابها جمع حاشد، أوقفنا السيارة قبل أن نسأل، سمعنا رجلاً فقيراً ما ستر الليل فقره يحدث بائساً مثله في أول ليل بحري يقول له (أبو داؤود مات) ! انفجرت السيارة، نحن بداخلها، تبكى ! أعدت الطبيعة عدتها، زمجرت الريح في الأشجار مكتئبة الأغصان، تبكي، صعد الغبار يبكى، قالت الطبيعة: إن هذا نصيبي من الحزن، تكون الفجيعة الرؤية مدببة الأطراف وذات أبعاد، انطلق الأسى على شاشة التليفزيون يبلغ الناس الخبر الذي (جل حتى دق فيه الأجل) لقيت عبدالله العربي أمامي جالساً، يتيم الكمان، على الأرض يبكى، والفاتح الهادي يبكى، وجل أهل الموسيقى، برعي دفع الله كان بعيداً عن ليل الفجيعة في تونس، بشير عباس في جدة، وبقيت وحدي. وجاء كل أهل الموسيقى يبكون، وكل الوتريات تبكى، ورق كرومة يبكى، والخرطوم بحري دخلت (بيت الحبس).

هل يموت عبدالعزيز، سذاجة سمها أو جهالة فلتكن، كنت أظن أنه لن يموت وأنه دائماً هناك كل مساء قبيل إخفاق ضوء الأصيل في داره بالدناقلة في الخرطوم بحري، وأنه بانتظاري، للونسة أو نخرج لمجاملة الأصدقاء، آه لقد ذهب في نفس الوقت من المساء، يلبي نداء ليس يقدر أن يتمرد عليه أحد. نبهنا الطيب محمد الطيب مرة بمقالة في يوميات الأيام كتبها عن عبدالعزيز، كأنه كان يحس أن هبة الله لهذا الوطن توشك أن تعود إلى من وهبها لنا، وما سمعنا كلام الطيب. وقال لي حسن عطية بعدها (هل قرأت كلمة الطيب؟ ما عجبتنى، بصراحة زي الكتب تأبين لعبدالعزيز) ولم نصدق هذا كله، وفي المساء الموعود، مساء السبت الرابع من أغسطس عام ١٩٨٤م حمل روحه الرائعة وغناءه العذب، ولم ينتظر.



البحث عن نسايم الليل

لم يكن عبدالعزيز داؤد يحدث كثيراً عن حياته، نشأته أو صباه أو مدارسه، ولم اكن كثير علم بذلك وبعض ما عرفت كان من أحاديث سجلها للإذاعة يذكر فيها طفولته في بربر، وبعض مراحل تعليمه ويبدر أنه قد درس في مدرسة الخرطوم الابتدائية وقتاً قصيراً، مدرسة ومكانها في قلب السوق، ذكر عبدالعزيز أن نوافذ الفصل كانت تجلب الضوضاء خارج المدرسة، وضجيج المقاهي وغناؤها ينبعث من الفونوغرافات، قال في خضم الجلبة الهائلة، يأتيه صوت كرومة عذباً صافياً، لكأنه خلاصة الخلاصة من ينابيع الفن، وذكر أن إنصاته لتلك الخلاصة ما ترك له بالاً أو عقلاً، فقد عرف إذن طريقه فليس عنه يحيد، وفي تسجيل للإذاعة يروى انه سار على قدميه مسافة بعيدة ليستمع إلى زنقار، ذكر أن الليل كان مظلماً، وحده، وأخطار الطريق، استأسدت عليه الكلاب، مزقت من ملابسه طرفاً، أتمثل العبادى يقول (شق حشا الطريق اتيا من الحلال زفنوا الكلاب، ما نالن الا علال) كلا فكلاب الطريق نالت من عبدالعزيز!

من هنا وهناك تأتى أخبار بداياته، ذكر لي مرة انه غنى (زمانك والهوى أوانك) لعلى المساح في نحو عام ١٩٣٩م، كان عبدالعزيز شديد إعجاب بهذا الشاعر العبقرى، وكان يبحث عن قصائده ويدونها ويغنيها، غنى له (طول يا ليل على الباسل) وهى من بعد كلمة رائعة، أتذكر خاتمتها (جميع من سمى باسمو، حرام النار على جسمو)، وقد خلق بأدائه (غصن الرياض المايد) ثورة في الأداء تتشرف بها مطالع الستينات، وغنى له (بالله يا نسيم الصبا)، ولم يتم تسجيلها للإذاعة، وربما كان هذا هو السبب في أن لم يكتب لها ذيوع كثير ومرة ذهب إلى عطبرة فسمع مطرباً مغموراً يغنى أغنية بهره لحنها لم يتذكر منها سوى قول المطرب (مساء الخير يا أمير) ولكن اللحن استقر في حنجرته فلا يبرحها، وحين لحظ المغنى إنصات عبدالعزيز المركز، شعر أن الرجل بسبيل أن يختطفها ويستعمرها فامسك عن الغناء، ولكن قضي الأمر، استقر اللحن في ذهن عبدالعزيز، بقى النص، ليست هناك مشكلة سافر عبدالعزيز إلى شندي، وحمل قضيته لمؤلف الأغاني على إبراهيم خليل، واسمعه اللحن وكانت الكلمات، بعضها (عار الصيد منك عيون، أهدت ليك البانة لون)..

مرة جاء من إحدى جولاته الفنية يدندن بلحن فريد، من الحان كرومة، كعادته تعلق صوته الفريد بالمطلع، جن به جنوناً (نسايم الليل زيدينى) قال إنها من كلمات عمر البنا، أين الشيخ عمر؟ قالوا يسكن مدينة الثورة .. وأين؟ ابحثوا عنه، إصرار وفريد، ذاك شأن

عبدالعزيز، ذهبنا وصلنا، جلسنا في دار الشيخ، بصر ووهن، وجسد عليه من آثار الأعوام الكثير، بشاشة معهودة فيه، هذا الفارس بالشعر، القوى بالقصيد، الشاب بإحساس القلب الوثاب، الذي شهد النقائض تكون بين شعراء عصره، وكأن العصر الأموي فينا، وكأن الأخطل وجريراً والفرزدق بيننا، ظاهر صالح عبدالسيد، وشارك في المعارك، وظهر الغناء كالذهب النفيس، نحن في حضرة الشيخ الشاعر وهن بصره القوى بالشعر، عمر البنا، لم يمهله عبدالعزيز فيكمل ترحابه لم يلق عليه القصيدة إلقاء، بل غنى ما علق بذاكرته منها غناءً عذباً استبدت بالشيخ القوى بالشعر، هاشمية الطرب، شالته، بسمة رضا، صارت كل وجهه، جعل يهمهم، يدندن بصوت، لا ريب قد عرف الغناء، صباه، بل حياته كلها، أنطقته هاشمية الطرب (آخ يا شافع .. يا سلام عليك يا شافع .. يا شافع) .. نظرت إلى (الشافع)، فإذا هو ذلك الضخم، الطويل، العريض، عبدالعزيز .. فاجأتنا نسايم الليل إذن، انظر يحمل الشاعر سلامه النسيم ليس كمثل غيره من شعراء زمانه، بل هو بمذهب شعراء المدائح ملتزم ومفتون، مثلهم يمزقه الحنين، تختلف الوجهة والمحبوب، لكنه على المذهب مقيم، سلام أولئك الشعراء لا يحصى عدداً، يفوق أعداد الكمون والسمسم، سلام شاعرنا مثل ذاك، لا يقع تحت حصر تأمل:

سلامي بعد تجنيني..

عليك وليالى سنينى ..

في وصفك وعد حنينى..

يغشاك مرفوق مع النسام روحى خلالو..

تسلمنا القصيدة، انتشرت على حنجرة الذهب، سخية الوقع والإيقاع واللحون ..

ولم يكن عبدالعزيز يتحدث كثيراً عن بداياته الفنية، ذكر مختار عباس - صديق وحميم- انه قبلنا جميعاً، استمع إلى صوت عبدالعزيز، كان بهذا يباهى، وبه يفاخر، قلنا كيف؟ قال (كان ذلك في عام ١٩٤٣. كنا ماشين عرس في القطينة، مجاملة لصديق، أجرنا تاكسى فورد، اتفقنا مع فنان من المشهورين، مشينا ليهو ما لقيناه، قعدنا مسافة ما ظهر، أدانا طبقة زولك، زعلنا جداً اتكسفنا الجماعة هناك منتظرين، العريس والقطينة كلها، وبعدين؟ قام صديقنا عبدالله محمد صالح قال يا جماعة ولا يهمكم، أنا بعرف واحد بغنى

كويس، بس ما مشهور، المهم نعدي الحفلة، أنا شخصياً ما كنت مقتنع بي كلامه، لكن قبلت، قلنا ليه يا عبدالله زولك رين؟ قال طوالى بيكون قاعد في قهوة الزيبق، مشينا للقهوة، زولك عبدالله نزل القهوة، جانا راجع معاهو واحد، أزرق زي الكحل، طويل، عريض، لابس طاقية، جلابيتو نص لياقة، ولابس شبشب، ما معقول يكون ده الفنان؟ ما معقول! يا عبدالله، قلت ليه بالراحة .. ده فنان، والـلا رباط، المهم زولك ركب معانا ونهضنا على القطينة، ومما ركب كان بغنى، وبغنى أطربني شديد، قلت ليه يا عبد، الناس حتعرفك بعد عشرين سنة، في السكة يا زول موية العربية خلصت، زولك عبدالعزيز من يومه دمو خفيف، والدنيا صقيعة والبحر بعيد، كنا ماشين بالطريق الفوق، رمال، رمال، رمال، مويا مافي وبعدين قلت ليك زولك عبدالعزيز من يومه دمو خفيف، وبحب يعمل مقالب قال: طيب أحسن بدل نتعطل واحد يبول في اللديتر، واحد فينا سمع كلامو، قام البخار سخن من اللديتر والحصل حصل)! وقد عرف الناس عبدالعزيز داؤد بعد ذلك بزمان لا يقل بحال عن عقد كامل من الزمان، وقد بقى مختار عباس في حياة عبدالعزيز مستمعاً مخلصاً وصديقاً وفياً، وكان مختار زهرة القعدات، وله فيها مواقف مشهودة ومشهورة، وكثيراً ما كان يمزق جلابيته طرباً، وكنت أخشى مثل هذا الموقف، يبلغه مختار دائماً حين يبلغ عبدالعزيز في شدوه (خدام جناين يا نديم، لازلت لامن انعدم) من رائعة الشاعر حدباى (زهر الرياض في غصونه ماح).

وكان عبدالعزيز يحب هذه الجلسات الصغيرة، لأنها تجمع أصدقاءه ومعجبي فنه، وكانت له بعض أفدنة في الحلفاية، زرعها برسيماً، وأقام عليها حارساً، ولكن عبدالعزيز لم يكن يعرف عن الزراعة أو التجارة كبير شيء، وكسدت بضاعته وصارت المزرعة وبالاً بعد ان اقترض من البنك الزراعي مالاً وجعل البنك يطارده، والفوائد تطارده، وأشباح المحاكم والحجز والبيع وهلم جرا، تغفل الحكومات كل أمر، وتستأسد أحيانا وذاك دين واجب السداد، وقد دفع من دمه ومن قوت عياله ما أسكت الأقساط والفوائد حيناً، ولكن إصرار القوم شديد، فكتب عبدالعزيز خطاباً إلى المسؤولين يلتمس أن يشطب ما تبقى من القرض، كان أهم ما فيه (لقد أنشأت هذه المزرعة أمنى نفسي أن أكون عزيز كافورى، فصرت عزيز قوم ذل !)..

ولقد اختفي عبدالعزيز بعد أيام ظهوره الأولي عهدا ليس بقصير، ومن الناس من لم يكن يحب سماعه، وهذه سنة الحياة، ولكنه حين عاد للظهور، جاء بثورة في الفن، ولم

يسبق لها مثيل، كان عبدالعزيز صديقاً للسيد الدرديرى عمر كروم، كان الدرديرى مثل مختار عباس يعرف ويثق بكل صدق، أن لعبدالعزيز صوتاً رائعاً وأداءً فريداً، وفي بيت الدرديرى في الموردة؟ كانت مجموعة من الأصدقاء تجتمع للسمر وسماع غناء عبدالعزيز، مرة كلم الدرديري، برعي محمد دفع الله، أن يشاركهم في الجلسات، قال برعي (كنت بعزف العود كويس وما بفتكر إني كنت متميز خالص في الزمن داك، ما فكرت كثير في التلحين، جيت لي ناس الدرديرى، سمعت عبدالعزيز بغني الأغاني القديمة، عزفت ليه انسجمنا جداً جداً، غناء عبدالعزيز من الزمن داك كان غناء جميل، أداء سليم جداً، استمرت المقابلات، فهمنا بعض كويس)...

في عام ١٩٥٠ سافر فريق المريخ إلى مصر، كان من أعضاء الوفد الفنان إبراهيم الكاشف، كان الكاشف يظاهر فريق المريخ في حماسة مشجعي الترسو، وكانت كرة القدم من صيم اهتمامات حياته، وله ولع بهذا الفريق لا يخفيه، وقد عرف به وهو لا ينكر. كنا نعلم كلما سمعنا صوته الرنان نقول الكاشف مريخابي ومثل هذا الصدق فتشجيع فرق كرة القدم أمر لم يألفه الناس من نجوم الأدب والغناء وغيرها، كثير من هؤلاء خشية أن يفقد طرفاً من جماهيره يدعى الحياد، اذكر فناناً سئل مرة عن أي الفرق يظاهر قال انه محايد وذكر انه يشجع اللعبة الحلوة، وقال آخر إنه يشجع الفريق القومي! على كل في قطار المريخ عام ١٩٥٠ سافر الكاشف إلى مصر، وكان معه برعي دفع الله، وحسن خواض وآخرون، توقف القطار يسعى حثيثاً للشمال، في بربر جاء عبدالعزيز داؤد إلى المحطة، كان ساعتئذٍ يمضي وقتاً في مسقط رأسه، بصر بالقوم قال على الفور(أنا مسافر معكم) انطلق للبيت، أحضر متاعه، وانطلق مع القطار المريخي إلى مصر، وهناك سجل بعض أغنيات الحقيبة لركن السودان ..

برعي والعود في يده ليس آلة. العود عند برعي إنسان يعشقه تحس أن للرجل علاقة مع ابن مدلل هو العود، علاقة مع معشوقة هي العود، وعزف برعي عزف منفرد لا يطاول سماءه أحد، عود برعي عود سوداني مثل اللون السوداني، ومثل العيون العسلية تكون على وجوهنا جميعاً، أن تفرد برعي بأمر من أمور الموسيقى، فلأن الطبيعة قد منحته السر أن يعزف هذا اللون السوداني، وهذه السمة التي لا نستطيع لها تفسيراً إلا أن نقول إنها شيء سوداني، وحين أذاع برعي في الناس معزوفة (لحن الحرية)، عرفنا من بعد، إنه أعلن مولد الموسيقى الآلية،

وأعلن مولد المعزوفة السودانية المؤلفة تكون بعد المارش الشعبي، واختصت به، كانت، فرق الموسيقى العسكرية ويعبر عنه بآلات النفخ الخشبية والنحاسية ثم ضروب من الإيقاع تؤديها طبول مختلف أحجامها..

نقل برعي دفع الله إلى الأبيض، واصبح باشكاتب مستشفي الأبيض، وللمدينة في تاريخ الموسيقى، آن يذكر، نصيب. وفيها من أهل شعر الغناء محمد عوض الكريم القرشي، ومحمد على عبدالله الأمي، وقد قدر لقصيدته (أحلام الحب) أن تكون أول عمل يلحنه برعي لعبدالعزيز، جاء عبدالعزيز إلى الأبيض يبحث عن برعي ويعد لثورة في الغناء ليس لها من نظير، قلت لكم إصرار ذلك فريد. من بعد تلك الأغنية جاءت (بالله يا أهل الهوى) واستمرت الألحان تتدفق: هل أنت معي، فينوس، لحن العذارى، أجراس المعبد، عذارى الحي، ومحمد على أحمد، عوض حسن أحمد، عبدالمنعم عبدالحي، حسين عثمان منصور وإسماعيل حسن..

وتدرجت المعزوفة على الزمان يرعاها أب حان، فازت (ملتقى النيلين) التي صنفها برعي بالجائزة الأولى في مسابقة نظمتها إذاعة (الترانسفال) ..

قال برعي (كان عبدالعزيز لا يغني لحناً لا يقتنع به، أو يحس، إنه لا يلائم صوته، كان يعرف قدرته على ضخامتها). أقول، وكنا حين نجلس في القعدات يجود عبدالعزيز ببعض من الغناء الذي ألفت الآذان والأرواح زمان الثلاثين والأربعين، أغنيات يتسلى بها الناس، كانوا، في المجالس، تبرد عليهم لظى الحرب، تدق الأبواب في الشرق، وفي الصحراء الغربية، ومناسبات آخر، وكنا نسمعها فتبرد لنا لظى زماننا ذاك العصيب، أغنيات تكشف الحجاب عن نساء عاشقات، ما نزع المجتمع عنهن، عصرئذٍ، حجابه الغليظ:

يوم لاقيتو راكب بسكليتو..

الشاب الظريف القبل الشاطيء بيتو..

اشر لي بريتو، شقانى وما شقيتو..

شفت الحبيب توب الحد رميتو..

العجب حبيبى ما رد لي تحية..

بعض إسفاف، قد يقول بذلك بعض المثقفين، من النوع الكامل من المثقفين والإنصاف أيضاً والأرباع، ولكن أين تخبئون الرؤوس من روح ذاك العصر؟ أكلما تغنت امرأة تتمنى حبيبها، تشتاق، قلتم ذاك هو الإسفاف؟؟ وكنا نستشيره فيمن ندعو للقعدات، إذ أن لها طقوساً ولوائح، وهى بعد محرمة على الثقلاء وهؤلاء كالموت يدركون المرء ولو ألجأ نفسه إلى البروج المشيدة، جاء أحدهم إلى حفل يغني فيه عبدالعزيز ولم يكن عبدالعزيز يود الرجل ويستثقله كثيراً ولكنه صبر عليه حتى لا يفسد الحفل ومضى زمان وعبدالعزيز يشدو، قام الثقيل من مجلسه، جاء إلى عبدالعزيز وقال (يا أستاذ، عليك الله غني لي غصن الرياض لأنها بترجعني عشرين سنة لي ورا) رد عبدالعزيز عليه قال (أنت عمرك كم سنة؟) رد الرجل (أربعين سنة) قال له عبدالعزيز (أغني ليك غصن الرياض مرتين، عشان ترجع بطن أمك وتريحنا)!!

كان عبدالعزيز يخضع للآلات الموسيقية مثل هذه الأغنيات التي ذكرنا من أغنيات الدلوكة، أغنيات التم تم، أغنيات البنات، سمها ما شئت، وكانت حرية القعدات الصافيات تبيح للغناء والحديث حرية مطلقة، وأحياناً لا تشارك ليلنا أي آلة موسيقية، إيقاع الكبريتة وحده، يشعل الليل طرباً، رجل لا يخطئ في أدائه قط، مرة جاء عبدالله عربي يبحث عن عبدالعزيز، كنت جالسا بدار اتحاد الفنانين سألني عربى قلت له إن عبدالعزيز سافر إلى عطبرة، قال عربى (لكن أنا شايف برعي موجود وأكرت وخواض وبشير، وأنا برضو مكلمنى، السافر معاه منو؟) قلت له (غير ليكم، قال ما عايز عازفين اشترى كروسة كبريت من دكان اليمانى وسافر)!!

من عهد الأربعينات من اكتشاف مختار عباس، إلى اللقاء في بيت الدرديرى عمر كروم، في مطلع الخمسينات من الطريق الفوق يفضى إلى القطينة، ومن أرجاء الموردة ذات الفن والأصالة والجمال، ومن بربر تزفه الكلاب، تمزق أطراف ملابسه، تريد مسامعه تبلغ صوت زنقار، لحين إن صار عبدالعزيز إلى مسامع الوطن كله، وصار جزءاً رائعاً من تراث هذا الوطن....

رأيت عبدالعزيز محمد داؤد، أول مرة، رأى العين، في أخريات الأربعين، أسعى كل يوم من زقاق العصاصير سيراً على الأقدام إلى مدرسة أم درمان الوسطى، وكانوا يسمونها الأميرية، ولا أمير، وكنا نلبس جلاليب الدمورية والصنادل بنية اللون، رأيته ذات صباح باكر، يقف أمام المكان الذي صار إلى سينما أمدرمان الآن، وكان قبلها قد صار دار حزب

الأمة، وفي بدايات نشأته كان معروفاً انه بيت تاجر مصري اسمه إبراهيم عامر. لذلك العهد رأيت عبدالعزيز أول مرة، ولم أعرف لحظتئذٍ انه هو، إلا بعد ذلك حين طالعت صورته تلك في صحيفة ما، وتذكرت القبعة التي كانت على رأسه، والتقط بها صورة فريدة تنم عن شباب وفتوة يذكرها أبناء جيلنا، وأهلات ذلك العصر، قبعة وقميص وجاكت سبور، وعلى الفم كدوس، يعتمد آخره على أصابع يده اليمنى، كان واقفاً في الطريق الكبير، شارع الموردة، وحده، يلفت النظر بطوله الفارع، وسواد بشرته النبيل، على أقل تقدير، كان أطول إنسان عرفه ذلك الصباح في ذلك الشارع.

في بيتنا راديو كهربائي خشبي، يأتي بالمحطات الإذاعية من قرونها حين عدت إلى أمدرمان من الفاشر، وجدت أن الكهرباء قد دخلت بيتنا في العصاصير، وكان هذا مبعث دهشة ظلت تسيطر عليّ زماناً طويلاً، وكان الراديو مصدر دهشة أكبر، وأول أغنية سمعتها في الإذاعة في حفلة غنائية موسيقية، نقدم لكم أيها السادة أغنية (يا مار عند الأصيل للفنان حسن عطية).

كانت أيام وادي سيدنا بداية النضوج لأبناء جيلنا، في السياسة، في الرياضة، وغيرها، وكنا نجلس في النادي، الساعات المتاحة لنا بعد الاستذكار نستمع إلى إذاعة أم درمان، راديو ضخم وكهربائي، يستشرف المكان ينظر إلينا، ننظر إليه، يسعدنا، كنا شيعاً نظاهر فناناً أو آخر، أكبر حزبين، حزب احمد المصطفي، وحزب حسن عطية، وعلى بعد يسير جماعة عثمان حسين، وعلى رأس هؤلاء صديقنا ومولانا فيما بعد، الطيب عباس الجيلي، كنت عصرئذ قد صرت، طوعاً، من أنصار عثمان حسين، وعند برنامج ما يطلبه المستمعون كنا نزيد عدداً، ونقوى، كان عبدالحليم عباس، قد فطن إلى صوت عبدالعزيز قبل أن نألفه بزمان بعيد، ونبهنا إليه، ما سمعنا كلامه، حين يطل صوت عبدالعزيز من الراديو الكهربائي الضخم، لا يبقى في النادي قريباً من الراديو أحد، إلا عبدالحليم عباس، وكنت أول أمري، أجامله، إذ كنت اسخر من كلمة (العرجون) وهى التي تجيء في صدر أغنية أحلام الحب (زرعوك في قلبي يا من كساني شجون، ورووك من دمى يا اللادن العرجون)، أظنها ليست من الشعر في شيء، بعد زمن صرت متعدد الولاء، حينا أكون مع أشياع عثمان حسين، وطوراً أنصت مع عبدالحليم عباس إلى عبدالعزيز محمد داؤد، أحس اليوم أن عبدالحليم كان يعرف أن في الجو بواكير ثورة، يراها هو، تتكشف كنوزها

أمامه، دون أن ندرى، ثم زادتنا (هل أنت معي) عدداً كبيراً، وبعد فينوس، كبر حزبنا شيئاً، وعبدالحليم عباس يقوده سراً، ولا يعالن. أما صديقنا محمد توفيق خليل فانه كان ثابتاً على حزب حسن عطية، بل كان يغنى (محبوبي لاقاني) بعذوبة، ورقة لا تنكرها أذن، رغم إنه كان يلعب الكرة بخشونة أفريقية، قبل أن يعلم الناس أمر الخشونة الأفريقية، ولم يكن توفيق خليل يظاهر فريقاً من فرق كرة القدم، ولا يميل لا إلى الهلال ولا إلى المريخ، ولقد سمعت قبل أيام انه صار رئيساً فخرياً لنادى العباسية، والحمد لله انه قد تعصب لفريق. وكان توفيق يضربنا في الدافورى ضرباً شديداً، ثم نستمع إلى غنائه ونغفر له، ثم أن صديقنا حافظ الشاذلى كان على قدر كبير وعظيم من الرومانسية وكثير إعجاب بأغنيات عبدالدافع عثمان.

عرفت عبدالعزيز داؤد، أول مرة عام ١٩٥٨. ذهبنا إلى داره في الدناقلة شمال، عبدالماجد بشير الاحمدى وأنا، كان الوقت عصراً، وفي اتحاد طلاب جامعة الخرطوم حفل في ذات المساء وللرجل كانت سمعة مدوية في (التعليق) وعدم الظهور في الموعد المضروب، قال الاحمدى انه يثق في بلدياته عبدالعزيز وفي كلمته، الاحمدى من ناس بربر، وكان بمدينته وأهلها يفاخر، كنت في شك من الأمر وكبير، اطل عبدالعزيز من الباب، رحب بنا، قال سأحضر، وبر بوعده وغنى، ومنذ ذاك المساء توطدت صلتي به، وصادقته بضعاً وعشرين سنة، لم نكن نفترق أثناءها إلا قليلاً، عرفت زوجه وأبناءه وأهله، وكأني بعض أهله، وحين ماتت (فلة) وهى كلبة الأسرة، حزنت عليها زوجه حزناً شديداً، خاصة وان فلة قد الفت دار عبدالعزيز جرواً صغيراً لحين أن أسنت وماتت، وكان عبدالعزيز قد أحس بحزن زوجته، فناداها وقد استبدت به روح الدعابة فقال (يا فوزية شدي حيلك أنا شايف الجيران جايين يعزوك!).

وكان مدخل كثير من معجبيه إلى فنه غناءه أغنيات الحقيبة وخاصة ما كان منها من التراث المتلالىء، الذي كان قد خلفه كرومه لوطنه وأبناء وطنه، ومن هؤلاء من زملائنا المرحوم اسماعيل بخيت عمر، وعبدالسلام صالح (شلب) وفي الرجلين خفة روح ودماثة خلق لا تخفي، وصارا من بعد من أصدقاء عبدالعزيز، واذكر للمهندس عبدالسلام صالح إننا كنا أيام الطلب في الجامعة نسعى لإقامة حفل بدار الاتحاد، وكلفنا أن نتصل بالفنان عطا كوكو، وكان عطا، رحمه الله، يعمل حلاقاً، وله دكان صغير في سوق الموردة، وانطلقنا

إلى هناك صباح يوم جمعة، لنخبر عطا بأمر الحفل. حين بلغنا مشارف الدكان. توقف عبدالسلام وقال لي (تعرف يا أبو الملك في مشكلة، عشان الراجل دي أول ما يشوفنا حيفتكر إننا زباين! أنا اكتشفت انو شعرنا طويل، وما بنشبه ناس جايين يكلموه في حفلة!).
وذات يوم جاء عبدالعزيز إلى الإذاعة، رأى أن سيدتين ضخمتي الجثة تتقدمان نحوه، كانتا مشهورتين بالدعابة ومن المعجبات بفنه، توقف عن السير، ينتظر، بلغت الأولى موقفه، وئيدة الخطى، حيته، كانت الثانية، وهى اضخم جسدا لم تصل إليهما بعد، قالت الأولى (أظنك ما عرفتني يا عبدالعزيز، أنا ما دار النعيم) ثم التفتت كأنها تريد أن تقدم صاحبتها إليه، لم يمهلها عبدالعزيز، قال على الفور (عارف صاحبتك أتذكرتها دى مش دار الرياضة)؟!

بعض المشتغلين بقضايا الشعر السوداني يؤرخون له بأحد كتب الاختيار (شعراء السودان) الذي جمع مادته سعد ميخائيل وهو كتاب له فضل الريادة في جمع مختارات من شعر شعراء ذلك العصر. وينسى هؤلاء فضل رجل هو محمود عزت المفتى والذي جمع المختار من شعر شعراء العامية في ذلك العصر، وهو كتاب نادر ندرة أسنان الدجاج (التعبير مأخوذ من الشاعر لانجستون هيوز): ويحوى الكتاب بين دفتيه قصائد لخليل فرح، يوسف حسب الله، وإبراهيم العبادى وأبو صلاح وغير هؤلاء وكان عبدالعزيز يقتني نسخة منه يحرص عليها حرصاً شديداً، كانت هذه النسخة بعضاً من مصادر فنه وينابيعه، ثم انه قد أنشدني طرفاً مما كان انشأ خليل فرح، وبخاصة ما كان يسمى الخمريات، وكان عبدالعزيز هو أول من تنبه إلى قيمة فن هذا الشاعر، وكان أول من غنى (عزة في هواك) بعد ظهور برنامج الحقيبة، ولا اعرف انه قد سجلها للإذاعة أم غير ذلك. وكان ينشد بعض أبيات الخمريات يصطنعها مطالع لأغنيات الحقيبة، بأسلوب حر هو وسط بين إنشاد الشعر كما علمناه، وأداء المدائح المكتوبة باللغة الفصحى، قر بذهني منها قول الخليل:

أنا في بساتين الزهور

بين الترايب والنحور

اشرب معتقه الدهور

نداماى عصافير السحور

جمدانه وابريقين وكاس

ونديم وساقي خدوده ماس

وجنينه سايقه نخيل وآس

أنا والحبيب ما معانا ناس

ولقد أمد شعر الخليل هذا عبدالعزيز باستنباط طريقة في الإنشاد استخدمها من بعد في قصائد ابن الفارض والبرعي وغيرهما مما سجل ولعل اشهرها الميمية المعروفة (شربنا على ذكر الحبيب مدامة، سكرنا بها من قبل أن يخلق الكرم).

ولعل هذه القصيدة هي التي جذبت فن الفنان المصور والمخرج السينمائي حسين مأمون شريف إلى فن عبدالعزيز، فجعلها مقدمة لفيلمه التسجيلي الرائع *DISLOCATION OF AMBER* والذي يحكى قصة الناس والبناء وحركة الحياة في ميناء سواكن، بغموضها وسحرها، وتجارة الرقيق. هي كلمة حق يقولها المخرج باللون والحركة والصوت ثم يخلص حسين من ميمية ابن الفارض في فيلمه إلى (انتم فروض ونفلي، انتم حبيبي وأهلي يا قبلتي في صلاتي، إذا وقفت أصلي، اللّه اللّه) سنين بعدها ظل فن حسين السينمائي يطارد صوت عبدالعزيز. والتقيا، جاءني عبدالعزيز يوماً في الجامعة كدأبه، وقال لي انه يريد أن يسجل شريط فيديو يقدم فيه بعض أغنياته، كان ذلك في مطالع عام ١٩٨٤، قال انه يريد أن يعطى للناس شيئاً لم يألفوه إذ هم قد سئموا أن ينظروا إلى التلفزيون يستمعون إلى مغن تعزف خلفه الأوركسترا دونما تعبير أو حركة أو تغيير، حمدت له حماسته، ثم قلت له أن الشخص الوحيد، الذي يقدر على هذا الأمر هو حسين شريف، كان حسين شريف يود عبدالعزيز وداً كثيراً، وحين مرض حسين مرة مرضاً شديداً ألزمه الفراش زماناً، كان عبدالعزيز يصحبني إليه، ويصعد إلى غرفته ويغنى له كل مرة أغنيته المفضلة (أمتى أرجع لأمدر وأعودا)، ويطرب حسين كل حين يتقافز طربه بين آلامه الموجعة. وتحمس حسين للفكرة كأنه كان بنتظرها، وكلفني أن أعد كلاماً، هو بالأساس رأى عبدالعزيز في أمور الفن والغناء، وجاء دور الكاميرا لتسجل له هذا الكلام، حسين إذن (قد خلف العبء علي وولى). أشركني حسين في هذا المجد، ماذا أقول، ماذا اكتب إذن؟ جاء الإلهام مرة واحدة شيدت كلامي كله الذي كتبته للفيلم الموعود من صلتي بعبدالعزيز التي بلغت آنذاك بضعاً وعشرين سنة، لذلك حين بدأنا التصوير، وكان في بيت أهل حسين في ود نوباوى كان عبدالعزيز يحدث الكاميرا والمايكروفون بكلام هو خلاصة أحاديث رواها لي، قد يكون

قد نسيها، ولكنها جعلت إليه تعود كلمة، كلمة بصوته الدافئ في الحديث. كان يحدث الكاميرا يقول (تعرف يا حسين اهلك من يوم ما ولدوك خاتين عينهم عليك، عايزنك تبقى حاجة تقوم تطلع فنان؟، بفتكروا الفن عمل صياع لكن تحت، تحت، بطربوا ويرقصوا. كرومة خلا حياة الناس بهجة، قهاوي السودان كلها تملا وتفضى بى صوتو، السباته في كل بيت عرس مليانة عشان كرومة، الناس كانت تباريه طول الليل من محل لمحل، تعبنا نحن كمان عشان نصل الإذاعة، المنافسة حادة قدامنا كان الكاشف وعبدالحميد يوسف واحمد المصطفي، وحسن عطية والتاج، عثمان حسين والشفيع، عشان تظهر لازم تجتهد، زملاءنا كلهم كافحوا قبلنا كفاح شديد لحد ما وصلوا، مرة كنت عملت فاصل غنائي في الإذاعة القديمة، وأنا طالع في الباب قابلت واحد يشبهنى جداً، اسود زي الكحل عريض سمين، واهم من ده كله اصلع، كان شايل عود وداخل الإذاعة، لما شفتو ضحكت ضحك شديد. قال لي: مالك ؟ قلت ليه: أوعى تكون جاي تغنى، قال طبعاً! قلت ليه (اسمع، أنا لما دخلت الإذاعة كان عندي شعر زي أولاد الهنود، قامت لي صلعة من الغنا، هسع إنت داخل الإذاعة بى صلعة جاهزة؟ شيل شيلتك)!

كان عبدالعزيز ينتظرنى بعد صلاة الفجر لنذهب إلى التصوير، لعله كان يحس دنو اجله، كان يحثنا على العمل، وسجل الأغنيات، وحين انتهى التصوير، اطمأنت نفسه، وسافر حسين إلى واو وإلى كادوقلى بعدها، يعد فيلماً آخر، وفي أمسية السبت الرابع من أغسطس ١٩٨٤، والمطر يحيط بكادوقلى، ويضرب على سقف الاستراحة وجدرانها، ما علموا ساعتئذٍ أن قطراته تنبئهم أنها دموع تذرف على العزيز الذي مات.



الكمونية أخت العذارى

كانت اجمل الأغنيات تؤدي في الجلسات أو القعدات تكون في وداع صديق أو استقبال صديق، أغنيات فيها حرية كمثل الحرية في الأمكنة الفساح، بعيداً عن لجان النصوص التي كانت، في أكثر الأحوال، تجتمع وتنفض لترفض كلمة بعينها أو قصيدة كاملة .. وكنت أحضر كثيراً من هذه القعدات بتنظيمها الدقيق، وكأنها ملاذ الفنان عبدالعزيز محمد داؤود، تصير فيه روح الفن الرومانسي فيختلف إلى الغاب من ضجيج المدن والثقلاء ورسميات الأمور، حقا كان عبدالعزيز داؤود، ربما عهد صباه، مولعاً بالطعام، وقد نسج الناس حول هذا الأمر حكايات عدداً، غير أن اكثر هاتيك روايات فيها مبالغة، أو مغالاة، أو إسراف، يقولون انه في قعدة ما في الحتة الفلانية أكل عبدالعزيز خروفاً، اعترف لي مرة، عبدالعزيز، إنه أتى علي صاج كبير من اللحم الشهي في بيت عرس وقد شاركه (بالعزف) علي محتويات الصاج أحد الموسيقيين، هو بالواقع كثير الحديث عن الطعام، يصفه وينتخب أطايبه كل حين يختلف فيه إلى السوق .. وذات يوم وكنا علي أطراف سوق الموردة قطع علينا الطريق قطيع من الخراف، فأوقف السيارة احتراماً للقطيع وأعجبه خروف فتسمرت عليه عيناه وسط القطيع، وكان خروفاً بني اللون، تمعن في ذلك اللون، ونبهني عبدالعزيز إلى انه (خروف كموش)! ضحكت وهو صاحب تشبيهات لا تنسى .. اذكرها فيما يخص صنوف الطعام، مثلاً كان يشبه الكستليتة بمضارب البنق بنق، ويقول عن الكمونية (كمونية أخت العذاري)! لا اعلم لم اسماها كذلك، ولم أساله عن ذلك أبدا .. لعلي قد اكتفيت بطرفة التعبير!!

كانت القعدات أيضاً مكان تجارب موسيقية وغنائية مدهشة، اعتاد بشير عباس أن يصاحب بعوده عبدالعزيز في أغنيات لمطربين آخرين .. فما من جلسة حضرها بشير عباس إلا وقدم عبدالعزيز فيها رائعة إبراهيم الكاشف (المقرن في الصباح) لخالد أبو الروس ..

الروض بسم والطير غرد ..

والطقس لا حر لا برد ..

الشمس إبان الشروق ..

أنا والحبيب نجلس نروق ..

وسط الزهور العاملة روق ..

ويشجينا أيضا بأغنية محمد عوض الكريم القرشي وعثمان الشفيع (رب الجمال) وأولها (المالك شعوري، أنا لي فيه آمال، رب الجمال) وكانت رب الجمال هذه ورب السعادة وسائر القرشيات اللائي يسميهن الجمهور عاشق الغناء (الأرباب) قد وجدن من وقف لهن في الإذاعة بالمرصاد فصارت رب الجمال (رمز الجمال) وشتان ما بين هذه وتلك، أعلم انه لو عاش هؤلاء القوم في العصر العباسي لقتلوا بشار بن برد انه قال (ربابة ربة البيت) ومن لجان النصوص والمسؤولين ما يقارب أن يشابه محاكم التفتيش.

كان عبدالعزيز صديقا لعباس بشير والد بشير عباس، ولعبدالعزيز حبال صداقة وود مع كثير من أهل حلفاية الملوك، ما تصرمت، وكان كلما سافر إلى بلد في أنحاء السودان وفيها عباس بشير إلا زاره وأقام عنده، وفي ١٩٥٦ حل عبدالعزيز مدينة سنار، وكان عباس بشير يعمل موظفاً بها، وبشير بدأ حياته العملية هناك موظفاً بمصلحة الري، وكان عبدالعزيز قد جاء لحفل يقام في دار السينما، ويعلم أن لبشير بدايات موفقة للعزف علي العود، فطلب إليه عبدالعزيز أن يصاحبه بالعزف، وتلك كانت أول مرة وحدثني بشير عباس فذكر أن أول أغنية عزفها في ذلك الحفل كانت هي (سمير الروح) من نظم الشاعر الملهم عبدالرحمن الريح..

ولم تعد مدينة سنار تفي بأغراض بشير عباس الفنية وأشغاله .. فانطلق إلى الإذاعة بعد ذلك بعام أو عامين، ولعل مصاحبته عبدالعزيز علي العود قد كانت إجازة فنية فتحت له أبواب الإذاعة، عين في مطالع يوليو ١٩٥٩م سكرتيراً لأوركسترا الإذاعة، وفي واقع الأمر فقد كانت أخريات الخمسينات وبدايات الستين تؤذن بعهد جديد في تطور الموسيقي والموسيقيين في السودان، كانت طريقة بشير عباس في العزف علي العود تنبئ عن تأثر بليغ بالموسيقي العربية والمصرية بوجه خاص، ولكن بشير عباس لم يستسلم لذلك الأثر، بل أفاد منه، ولم يجعل نفسه محل استسلام وخضوع لتلك الموسيقي، فخلط ذلك التأثر بتربية فطرية سودانية صميمة، هي التي نسميها دون كثير حذر طريقة بشير عباس، تحسها في موسيقاه وفي لحون الغناء التي صنفها، وكان عهد ظهور بشير هو عهد جيل الموسيقيين من أمثال عازف الكمان محمدية الذي تأثر أو قل تعرض لذات المؤثرات، وبأسلوب عبدالله حامد العربي أولاً، ثم درس في معهد الموسيقي في مصر وأجاد الأسلوب الشرقي ولم يفقده ذلك موروثات الكمان السوداني من لدن السر عبدالله وحسن الخواض وسائر الذين .. منحوا

الكمان سيدة الآلات الموسيقية طراً، جنسيتها السودانية ..

سافر بشير عباس عام ١٩٦١م إلى القاهرة بصحبة عبدالعزيز داؤد، كان هناك حسن خواض وبابكر محمد احمد وبرعي محمد دفع الله.. ويذكر بشير انه وفي وجود برعي ربما لم تكن هنالك من حاجة كبيرة إلى سفره إلى مصر مع الفرقة، ولكنه يبرر هذا أن عبدالعزيز كان بعيد النظر ولعله عزم علي أن يمنح بشيراً فرصة (للتدريب) علي حد تعبير بشير عباس .. وقال انه حمل معه وعلي استحياء أول لحن له هو أغنية (أشوفك) التي نظمها عبدالله النجيب لتكون بكورة تعاونه مع عبدالعزيز.. كان بشير يخشى أن يهمل عبدالعزيز شان أغنيته، ولكن عبدالعزيز تحمس للأغنية وغناها .. ويعتز بشير بذلك كثيراً، إذ كان عبدالعزيز منذ بداياته قد قدم ألحانا رصينة السبك، جليلة الصوغ، مثل هل أنت معي وفينوس وصبابة وغيرهن من ذاك العقد النضيد المتلالىء ..

في الجلسات حيناً بعد حين، تكون النكتة سيدة الموقف، وقد تأخذ مقاماً قريباً من الغناء، وقد تنبثق فجأة رغم كل شيء، وقد يحكي عبدالعزيز لي ملحة أو نكتة أنشأها أو سمعها ويريد أن يسردها علي طريقته الفريدة يأتي إلى مكتبي في الصباح البكر يقول (سيد علي أنا جاييك بي واحدة بت كلب) أقول له (طيب نسمع) ينطلق (طبعا أنت عارف اليومين دي الرعاة بقي عندهم سوق وبيهاجروا كمان، عشان كدة أسعارهم عالية، المهم في واحد كان عنده خمسة غنمايات، قال احسن يوديهم للراعي، قام مشي ليه وقال يا سيادتك تأخذ كم في الشهر وترعي الغنم ديل؟ صاحبنا الراعي قال ليهو والله أنت عارف اليومين الحكاية قرصت معانا شوية، يعني حنأخذ منك مية جنيه، كل غنماية بي عشرين جنيه! صاحب الغنم ضحك كدة وقال للراعي: عندى سؤال واحد الكتب علينا ولا عليكم ..

حين اتجه عزمنا إلى تسجيل أغنيات الحقيبة، كتبت خطاباً حول هذا الموضوع إلى الأستاذ محجوب عثمان، وكان وزيراً للثقافة والإعلام عصرئذ، فوافق علي الفور وأول أغنية سجلها عبدالعزيز فيما اذكر كانت (عروس الروض) ..

سارعي من قبل يشتد الهجير بالنزوح

واسبحي ما بين طيات الأثير مثل روحي

وإذا لاح لك الروض النضير فاستريحي

وهي قصيدة للشاعر الياس فرحات، وكان زنقار قد جعلها طرفا من تراث الغناء السوداني فانتشرت، في زمانه انتشاراً شديداً، وقد كان الفنان الممتاز زنقار من الفنانين الذين يكن عبدالعزيز لهمم وداً شديداً، وكان معجباً به اشد الإعجاب، واذكر إنها حين انتشرت بصوت عبدالعزيز وكلما سمعها صديقنا الموسيقي علي ميرغني، بكي لفرط التأثر بالأداء الجميل، وسجل عبدالعزيز ضمن هذا المشروع أغنيات عدداً، كنا نأمل بالطبع أن تزيد ولكن تراكم الأشغال حان دون بلوغنا ما كنا نروم، أما أنا فقد كان من دافعي كمستمع أن ينعم المستمعون كافة بسماعهم غناء عبدالعزيز أغنية صالح عبدالسيد أبو صلاح وكرومة (كم نظرنا هلال) وقد سمعته يغنيها فيما يشبه الإعجاز وكنت كثير الحديث عنها، في واقع الأمر، ما أزال، ويسألني الأصدقاء مداعبين ولماذا كم نظرنا هلال، وأنت مفرط في تشجيع المريخ؟ والرد عندي: لله في خلقه شؤون ..

وطرفة أخري، قال عبدالعزيز: انه عاش في زمن ما شاب (درويش) يعتقد الناس أن فيه بركة، وكان إذا قال مثلا (خالي) يموت خاله في اليوم التالي، وإذا قال (عمتي) تموت عمته في اليوم التالي، وهكذا وكان أهله يخشون هذا كثيراً وفي ذات يوم وأهله كلهم في البيت صاح فيهم (أبوي)! وفي اليوم التالي مات جارهم!!

اللهم قد اخترت عبدالعزيز إلى جوارك، اجل لكل اجل كتاب، اللهم أن كان مسيئاً فتجاوز عن سيئاته، وما كان عبدالعزيز كذلك، اللهم أن كان محسناً فزد في إحسانه، وبالمعنى الذي نعلم فقد كان براً بنا؟ عف اللسان، وعلمت من بعد أن مات انه كان يخرج إلى سور جامع أم درمان الكبير عقب صلاة الفجر كل يوم جمعة، ويوزع علي المعدمين الفقراء عند سور الجامع مئات الأرغفة .. حدثني بهذا صديقي حسن يحي الكوارتي ..

كان الغبار مساء السبت الرابع من أغسطس ١٩٨٤، يشيع معنا أعذب الأصوات في تاريخ هذا الوطن غير مدافع، دونما ضجة، أو ثرثرة في الصحف، هو أعذب الأصوات في تاريخ غناء السودان غير مدافع، أقولها لا أرجو تأييداً من أحد، ولا تعضيداً، واري الآن بعض أصوات رديء الغناء تريد لتثري من أغنيات عبدالعزيز، من هؤلاء من حاكي مذهبه في الأداء، يصيبني عمله ذاك بتعاسة غامرة أقول لهذا أن إنشاد عبد العزيز:

بهديها روحي تقسما

بدل الزهور في مواسما

مهما النفوس قدرن سما

دي الفي القليب ممضي اسما

والتي ينشدها بأسلوب الرميات الحر، مثل ما عهدنا من أيام سيادة غناء الحقيبة لم تصطنع (رمية) قي واقع الأمر وإنما هي أغنية لها لحن معروف وتؤدي به وهي أغنية (لي نيه في قمر السما) لسيد عبدالعزيز، وقد تصرف عبدالعزيز في أدائها وجعلها مطلعاً ينشده بحرية، وهو أمر لا يقدر عليه إلا صاحبه الذي ابتدعه، واللّه تعالي اعلم، ثم هل يقلد مذهب في الأداء؟ ثم أن بعض أهل الفن الشعبي اسلموا لحونه (لكركبة) الإيقاعات المنفرة، تصور لقد سمعت من يغني بتلك الإيقاعات المنفرة أغنية لبرعي وعبدالعزيز تعتمد أساسا علي استهلال موسيقي بارع، وعلي لازمات موسيقية صعبة الأداء، تلك هي أغنية صغيرتي. والشيالون يرددون مع مغنيهم (الشوق والأحلام ما زالت تؤرق والسنين، هل كنت تعنين الذي ما تدعين، ما زلت اذكر خصلة عربيدة فوق الجبين)..

فوزية محمد حسين زوج الفقيد، خلف العبء، بعضه وهو جله، عليها وولي، عزة وعزام التوأمان يصعدان درج التعليم صعوداً متفوقاً، عمران اكبر الأولاد صار من أهل فنون الطباعة، كان أبوه العظيم طرفاً من حياته، صفيفاً في مطبعة، وداؤد في دبي، وعلاء الدين في شموخه، وعايدة تعمل في الإذاعة، وماجدة تغني لأبيها فيما قد علمنا، وشجرة النبق في ذلك البيت تجود بما تقدر عليه، وقد جادت في صباها بثمر حلو وفير، وقريباً منها غطاء بئر المجاري، وكان المجلس البلدي قد اصدر قراراً بأن تحفر الآبار في كل بيت علي نمط هندسة المجاري الحديث، وجاء الحفارون إلى بيت عبدالعزيز وقد استبد بهم الطمع، قالوا له يا أستاذ البير بتجيب مويه في البيت ده بعد ما نحفر عمق عشرة رجال، والراجل بكلف ميتين جنيه! ضحك عبدالعزيز ثم قال (و..بتحفروه بي كم)؟!!

وإني مازلت اذكر والأسى بعضي وجلي وكلي والحزن تلك الليلة الرابعة من شهر أغسطس ١٩٨٤م، والغبار ينشر الأسى، والمقبرة ذات الظلام وأهل الفن قد تركوا الغناء للبكاء، اذكر أن واحدا من المغنين المعروفين كان يغنى علي بعد خطوات من بيت الأسى في حفل عرس ليلة دخلت الأمة (بيت الحبس) من قال أن الفن غير الأخلاق؟..



ذي شمبات كونسيرت

ثم يحضر عبدالعزيز يلاقيني يقول، اذكر الساعة واحدة من النكات، قال (يا أستاذ سمعت بحكاية الراجل السماكى التعبان)؟ كل يوم، أخد ليهو مدة يمشى البحر، يرمى الصنارة، الشبكة، ما في فايدة، قرموط ما لاقى، وضاق بيهو الحال جدا، وفي يوم من الأيام الصنارة شبكت، يجر، ويجر، ويجر، قال يابوها لازم ده عجل، طلعت قزازة، فتحها، ظهر ليك العفريت الكان في فيلم ألف ليلة وليلة قال ليه شبيك لبيك، عبدك بين إيديك، أنا مسجون في القزازة دى من أيام سيدنا سليمان، طلبك يا أمير. أنت خلصتني من الأسر، صاحبنا السماكى لما فتح عيونه من المفاجأة، أتذكر أهم حاجة انه ساكن عشوائي، كل حكومة تزدرى عليه، كل معتمد، كل محافظ، كل وزير يرجعوا عشوائي تاني، قام قال للعفريت: والله أنا بس طالب قطعة ارض، العفريت ضحك ضحكة زى الرعد، وقال ليهو يا سيد أنا لو لاقى لى واطه مع الحكومة من زمن سيدنا سليمان كنت سكنت في قزازة!!).

كانت النكتة أو الملحة مقدمة في المايكروفون يطلقها عبدالعزيز على أسماع مستمعيه، يعقبها أحيانا بالرميات كمثل:

الطابق البوخه
قام ندا يهتف نام من الدوخه
ايده عاقباه
لى معالق الجوف موسه مجلوخه

أو:

القايمه بمبونه
الواشى ما جب لى
ذكرى في فنونا
ما بريد دونا
يا كريم خيل لى
خلني شويه
انقر التليفون كان يرد لى
عرضحالى التام حجه مدنيه

ركل هذه المقدمات إنما يجعلها عبدالعزيز، فيما أظن، رسولاً نبيل الشان يكون ويجعل بينهن وبين المستمعين حبلاً من الألفة والود رصين البنيان ..

وعلى الرغم من أن المستمع السوداني في المسارح والأماكن العامة، عموماً، مشهود له بحسن الاستماع، إلا أن قلة من الناس، مهما كان شأنها وأمرها، يمكن أن (تلخبط) كيان الحفل، وحانت الرميات هذه، وتلك الملح والطرائف، كثير أحيان، تنبه المستمعين وتجرهم، إلى الإنصات بعناية لما يستقبل من الغناء، وكانت الفرقة الموسيقية، آن ينشد عبدالعزيز رمياته، أو يلقى نكاته الجميلة، تصاحبه بأداء حر، لا قيد يكبله وكان ذاك يضفي على الحفل سلاسة محببة ..

ويشهد تاريخ الغناء السوداني منذ أخريات العشرين وعلى اقل تقدير، أن كلمة الغناء الفصيح، وما اكثر الشعر الفصيح عندنا، لم يقدر لها السيادة، ولا أكاد اذكر شيئاً قد صار من بعض اللحون المألوفة، وعلى مد زمان طويل، إلا رائعة الياس فرحات (عروس الروض يا ذات الجناح) التي اشتهر بأدائها الفنان الكبير حقاً، فضل المولى زنقار، ثم من بعد عهد الصمت، ذاك كان لحين قيام الإذاعة في الأربعين، ألف المستمع كثيراً من الشعر الفصيح يغنى، ولكن يحمد للشاعر حسين بازرعة والى الشاعر قرشي محمد حسن انهما قدما لعثمان حسين أغنيات كثيرة بالعربية الفصحى فكتب لهن النجاح الهائل، ونذكر (خمرة العشاق) و(اللقاء الأول) لقرشي محمد حسن ثم (القبلة السكرى) وأخواتها الفصيحات لبازرعة مما كان يبشر بعهد من الرومانسية المحدثة وان كان ذلك المذهب يمضى أخريات أيامه فكانت القصائد بما قد صارت إليهن من جيد الغناء قد أمدت في عمر ذلك المذهب ومن كانوا يبشرون به:

عندما تغفو الأزاهر في الربا

ص في ٩-

النسيم الحلو يهفو رطبا..

والندامى يسكبون العنبا ..

يرشفون الكأس حببا حببا ..

ومن الملاحظ أن عبدالعزيز بنى مجده الغنائي، وهو بعد متين، على قصائد أنشأهن عوض

حسن احمد، مثل (فينوس) ثم جاءت (صغيرتي) متأخراً عهدها، ثم (هل أنت معي) للشاعر المصري محمد على احمد، صاحب (على قد الشوق) التي غناها عبدالحليم. وأسهم عبدالمنعم عبدالحى في ذاك العقد المتلألىء بقصيدة (لحن العذارى) وبازرعة (صبابة) وحسين عثمان منصور (أجراس المعبد). ولابد إننا نؤمن اليوم أن عبدالعزيز قد أجاد الغناء بالعامية والفصحى كلتيهما، وهو أمر لم يصل إليه من قبل إلا عثمان حسين، ومن بعد عبدالكريم الكابلي، بينما طغت أغنيات العامية على ما قد جرب محمد وردى من الغناء الفصيح، فقنعت (مرحبا يا شوق) ورصيفاتها بالمقاعد الخلفية من غنائه..

ومن بعض أهل الفن والمطربين من يظن أن غناء الفصحى يحتاج، حين يؤدى، إلى كثير من الموسيقى، تكون بعض تمهيد لمستمع ما علموا انه قد استمع لمثل هذه الألوان الغنائية بل انه قد تدرب عليها وقد أورد هذا الاعتقاد أولئك القوم اصطناع مقدمات طويلات: لم تقدنا لشيء سوى التنبيه إلى مصادرها، وهى ضروب من التأثر الفج بالموسيقى العربية، في عصور الستين والسبعين من هذا القرن، وتعتمد فيما تعتمد على فقرات منفردة أو سولو، يتبادلها الكمان المغلوب على أمره، في مواجهة الأوركسترا ذات التكوين السوداني العشوائي الحديث، وكما هو معلوم فقد كان السولو قد دخل الغناء العربى جزءاً من المحسنات الموسيقية، وأعلم أن تكليف آلة موسيقية ما، بأداء دور منفرد، في لحظة معينة إنما هو أمر يفترض أن يكون الآمرون به على علم ودراية بخصائص تلك الآلة، وما تقدر عليه. وعلى كل حال فان الركون إلى المقدمات الموسيقية الطويلة مهما كان القصد به واليه فهو أمر تالف. علينا أن نلتفت ونعتز بتراثنا الموسيقى، فانه لا يعيب انه على السلم الخماسي، وهذه الربكة التي يثيرها أنصاف أو أرباع المتعلمين موسيقياً لا تسير بالموسيقى في طريق التطور، واراها قد بدأت تضر بالألوان الموسيقية التي نعلم، ضرراً كبيراً..

وإذا نظرنا إلى هذه المقدمات الطويلة التي صارت سمة بعض الحان المطربين المشهورين، فإننا نجد إنها قد عبدت الطريق لآلات صارت طاغية علي تكوين الفرق مثل الأورغان الكهربائي، وألوان القيثارات، والغناء السوداني في مجمله، قل ما استقر بوجدان الناس غناء عذب حقاً، يمكن، لأكثره أن يغني دون جلبة، وتناسبه الوتريات التي اختزلنا كل أفراد أسرتها بداية بالباص الوتري ثم الشيللو والفيولا وركنا إلى الكمان وحدها. هو أمر بالغ الخطورة إذ أن انصرافنا عن سائر أفراد الأسرة الوترية يجعل التكوين

الأوركسترالى مهما قصد منه، ناقصاً شيئاً، لقد كانت أوركسترا الأغنية السودانية بسيطة، فيما مضي من الزمان، وصغيرة وتلائم ما قصد أن تؤدى. وهي اقدر أن تنهض بأمر الغناء السوداني الصميم وليس الهجين الذي اصبح الفنانون يلوذون به ويصفون به إبداعهم، ومقدماتهم الطويلة تلك مثل الإضافات التي لا تلزم في المباني حيث تعد لإيواء أعداد كبيرة من الناس أو لتقابل أغراضا لم تنشأ لأجلها أصلاً..

كانت مقدمات برعي محمد دفع الله لألحانه الفريدة آن الخمسين والستين جزءاً مكملاً للأغنية، وأغنية برعي في الأساس أغنية جيدة السبك والصوغ، وهي بلا ادني ريب (الأغنية السودانية) لهذا السبب فإنها كانت فتحاً جديداً ولكنه يفخر أن له جذوراً في تراث اصله المدائح والغناء الشعبي وكرومه وإبراهيم الكاشف، وتلك اللحون هي التي جاءت بعبد العزيز إلى عالم الغناء، وكانت الثورة وكان فتح الغناء المبين، وإذا أعدنا الكلام فمقدمة أغنية برعي اصل فيها، هي مقدمة سودانية وليست مقدمة هجيناً. هي إثبات لحق العود الشرعي في أن يكون سيد الأوركسترا وقائدها، ولذلك فان تجويد الأداء عند عبدالعزيز، في عامي الغناء وفصيحه، كان آلة العود، ومصاحبة برعي وبشير عباس وهما امهر من عزف علي هذه الآلة. كان من سبب نجاح عبدالعزيز، وهو الذي أمده بهذه الثقة المفرطة في الأداء، وقد يبلغ به حداً لا يكترث معه بقيمة الآلات الموسيقية. مفارقة عجيبة، العود مصدر ثقته بفنه الغنائي ومصدر تحكمه الفذ في الكلام واللحون، ولكنه كثير أحيان يغني دون أي آلة موسيقية، بل وبقيم قعدة تأكل الليل كله طرباً حميماً، دون آلة سوي الكبريتة العجيبة، مرة دعانا عبدالعزيز إلى جلسة في شمبات أقامها لاستقبال صديق من عطبرة وكان عبدالعزيز يكرم أطرافاً من صباه في تلك المدينة الفذة. ويحمل لأهلها الذين يعرفهم والذين لا يعرفهم، اشد الود والتقدير لعلها صباه، وشروق مواهبه، ومطالع معرفته للناس .. كل شيء كان معداً. الطعام والشراب والألفة الحقة، والحاضرون وقد انتخبوا انتخاباً، در وثمين، ونسمات الحقول النديات، لم تبخل دأبها، أن تختلط بليل الصيف البديع.

كان مزاج الأستاذ معداً للغناء، قال يا أخوانا برعي أتأخر، قلنا: نصبر قليلاً، أفضى بنا الصبر القليل، أسلمنا قل، بعيد العاشرة، جعل عبدالعزيز يسخر منى يقول (صاحبك لازم نسى يلبس بدلتو، ورجع يلبسها) يقصد إلى برعي دفع الله. وأصل كلامه هذا إني اتفقت مع عبدالعزيز ذات ليلة أن يغني لطلاب داخلية النيل الأزرق في الجامعة (صارت الآن جزءاً من

كلية الاقتصاد) ولم يكن اتفاقاً مسبقاً. جاء الشباب إلى دار الفنانين في أم درمان. لمحوني قالوا يا سيد علي كلم عبدالعزيز يغني لينا الليلة، وافق الرجل العظيم علي الفور، كلمنا برعي في الأمر قال (جدا، اذهب البس بدلة واحصلكم في الجامعة) قلنا (جميل) وصلنا قبله إلى الجامعة، جلسنا عبدالعزيز وأنا علي الجدار القصير مما يلي شارع الجامعة كلما لمحنا أضواء سيارة قال لي عبدالعزيز ساخراً (لازم ده صاحبك. أنا شايف واحد لابس بدلة جوه العربية!) وكانت داخلية النيل الأزرق قد بدأت عرسها بالأنوار الباهرات والموسيقا ونحن علي الجدار القصير مما يلي الشارع ننتظر برعي، وآخر الأمر دخل عبدالعزيز الحفل وغنى بارعاً، وطيب خاطر المئات من الذين احتشدوا بالوجدان لسماعه وكأنهم في خشوع.

أسلمنا انتظار برعي دفع اللّه لما بعد العاشرة، الشواء يتلظى بالنيران، والقعدة ذات بهجة، وصنوف بشر وألوان يلتفت عبدالعزيز إلى (لازم صاحبك لقي المكوجي قافل!) ثم صمت قليلاً وهتف بنا (جيبوا المسجلات دي، تعال يا سيد علي) وضعنا المسجلات أمامه، واعدت نفسها فوق أعدادنا آباها، فتحت قلوبها، خشعت (نسايم الليل زيدنى) ثم (انه المجروح) وأتحفنا لأول مرة بـ (هجد الأنام أنا وحدي مساهر، النحول علي جسمي يا حبايب ظاهر). ابتلعت المسجلات إيقاع الكبريتة، لا تنقص عود ثقاب، والصوت هبة السماء، وصوتي يتعثر، ثم غني لنا (أنت بدر السما) علي طريقته الخاصة في الأداء كان عبدالعزيز كثير احتفاء بالشاعر علي المساح، ويرى في شعره سمواً متفرداً، وانه قد جعل من وادمدنى التي احبها حباً صافياً، شيئا يكاد يماثل أم درمان الحقيبة أزمان العشرين والثلاثين ومطالع الأربعين، وعلي حنجرته اشتهرت وانتشرت قصيدة المساح، (غصن الرياض المايد) و(طول يا ليل علي الباسل) و (باللّه يا نسيم الصبا) كان سيف النصر محمد عثمان عازف الكمان يقول لي انه كلما جاءت الطائرة تهبط مدرج مطار الخرطوم بصر بالعاصمة بساطاً من الضوء تحته، جاءه وسط الأزيز والخوف والرجاء صوت عبدالعزيز يحمل كلمات المساح:

حليل اللاح فر بسمو

حليل الكيه لي خصمو

جميع من سمى بي اسمو

حرام النار علي جسمو..

في ليل شمبات الندي واللحم تعذبه النيران، وقد انتهي شوط الغناء المجيد الأول يلتفت

إلي يقول (يا سيد علي صاحبك برعي بربط في الكرافتة وحيجي هسع!). ويا زمن هل من عودة هل؟؟



أعظم اختراعات البشرية

وقبل ادخل في موضوعي رأيت أن أفضي إليك بخبر ربما سرك وأفرحك: فلقد وفقت في هجران الأوغاد بعد طول مصاحبة لهم على حد قولك أو تشنيعتك، لم اعد ألاقي منهم إلا القليل! ولزمان يقصر ولا يطول.. والفضل -من بعد الله لك... إذ نبهتني إلى ما أصابني في كهولتي غير المكتملة.. وتراني ركنت إلى نفر قليل تسعد برؤيتهم وصحبتهم ثم ألوذ إلى أوراقي القديمة، فهي خير عاصم لي ممن ذكرت من الأوغاد!!

ولكنى لا أزال، مصابا بالداء العضال الذي تعرف. متابعة كتابات أهل السودان: في صحفهم ومجلاتهم (أو المجلات الأخرى) وكتبهم وغيرها يدهشني في هذا السيل العارم من الكتابات.. والكتاب والبعض لا يكف عن تسويد الصحف.. دون أن يقول شيئا ذا بال. وآخرون يكتبون في كل شيء وبثقة يحسدون عليها! وأوشكت أن أقاطع الصحف.. لولا بعض الأقلام التي لا تشيخ ولا تذبل، والتي يتحين المسؤولون عن التحرير في الصحف بالسماح لهم أحيانا كجرعات مضادة لداء السعر الكتابي (أفكر جاداً في تكوين جمعية للرفق بالقراء.. وأتمنى أن يكون الأستاذ (بوب) مستشارها القانوني، فهو من الأقلام التي لا تشيخ.. وليت السيد على التوم يتكرم عليها بدراسة جدوى وهذا قلم فحل!

وبعد هذه المقدمة الطويلة.. التي أوحى بها الثقلاء من الكتاب وهذه من فوائد الثقافة توحي وتعدى، أجارك الله !.. واكتب لأعلن سعادتي بمقالاتك عن العزيز (أبو داؤود)! أوشكت أن أنصحك بان تفمطم نفسك عن الكتابة بعد استمتاعي بالمقال الأول.. الذي ما أزال اتلمظه.. حلوة هذه؟ تبسط أبو ديفيد لو كان حياً! ولكنى ما قرأت مقالة إلا تمنيت أخرى.. ودعك من الهنود الحمر والكابويات وبت هوفن وهوفن ذاته! متعنا بريك - بأبي داؤود، وقصص آبي داؤود..

ويا حبذا لو قصصت على قرائك الكثر نوادره مع صديقكما (مخ) وتعجبني تلك التي مزق فيها مختار جلبابه طرباً (أرجو إلا تحسب أني أريد أن احدد لك موضوعاتك.. كما يفعل اتحاد كتاب بعض الدول.. ولكنى أريد أن (أتداوى) من أورام الثقافة التي أصابتني من جراء السعر الكتابي.. ولا شفاء لي سوى أحاديث أبي داؤود الشيقات.. فداوم.. واكثر. وحذارك من الحرمان .. وزيدني في هجراني).

وحتى ألقاك... ربما في رسالة أخرى.

أخوك

عثمان حسن أحمد

اشكر للأخ الكريم زميل الدراسة (القديم) عثمان حسن احمد رسالته البليغة، ويسعد الكاتب كثيراً أن يقرأ الناس كلامه ويوافيه منهم تعليق ما بالقدح كان أم المدح، ليس مهما، وواقع الأمر أن اشد ما يسعد فيها، أي تلك الرسالة، إنها ذكرتني بعهود من الصبا والفتوة وزمان هيهات له ولنا أن يعود، وكنت بالحق احسد صديقي عثمان على طول باله، وصبره على الثقلاء، وكنت اسميهم بصيغة مبالغة (المثاقلة الأفذاذ) أقلد في هذا ما كان يزحم الأنباء من القول آنذاك (القبارصة الأتراك) فتأمل.

وواضح أن مقالاتي عن الفنان العظيم عبد العزيز محمد داؤود قد أثارت اهتماماً ملحوظاً، واكثر القارئيها أبدى بعضهم استحسانا ولكنهم عزفوا عن كتابة تعليقاتهم فأوردوها شفاهة.

وعلى كل ففي رسالة الأستاذ عثمان حسن احمد إشارات إلى ما اكتب في هذا الباب عموماً، منها تفضيله مقالات عبد العزيز على سائر ما كتبت في هذا الباب، من ذلك بعض كلمات كنت قد نشرت عن الموسيقى، وحكايات مترجمات هن أصل في ميثولوجيا الهنود الحمر، الاباتشى والتيوا والكومانشي وهلم جرا. وللأستاذ الحرية في أن ينتخب ما يشاء مما اكتب. وهذا مما يحمد له.

والحديث عن نوادر مختار عباس أو (مخ) مع عبد العزيز كثيرة وأحداث تمزيق جلابيته طرباً كثير أحيان، أحداث لا تنسى، وقيل أن مكبر صوت قاد مختار عباس ذات مساء إلى بيت عرس، وكان الغناء لعبدالعزيز أو هكذا ظن مختار فاندفع إلى المكان شبه مغمض العينين، ثم مزق جلابيته طرباً، وحين أفاق وجد أن المغنى مقلد جيد كان يغنى (هل أنت معي)! ولحظت في المرات التي استبد فيها الطرب بمختار انه كان يمزق الجلابية في موضع معين من أغنية حدباى المعروفة (زهر الرياض في غصونه ماح) وذلك حين يبلغ عبد العزيز بالغناء هذه العبارة (خدام جنابن يا نديم، لا زلت لا من انعدم) وكان من أصدقائنا واحد يضع على رأسه كوب ماء يرقص به مثل لاعب الأكروبات كلما طرب لغناء عبد

العزيز وغير هؤلاء كثير..

كانت صلة عبد العزيز بأصدقائه ومعجبيه صلة قوية حسنة للغاية إذا مرض أحدهم عاده، وان كانت عند أحدهم مناسبة جامله فيها كأحسن ما تكون المجاملة، وقبيل موتها مرضت أمي مرضاً شديداً الزمها مستشفي الخرطوم الجنوبية وفيه قضت بعد صراع طويل، وكان عبد العزيز يعودها، ويتحدث إليها مثلما هي أمه، ثم كان يمر علينا، بعض أهلي وأنا، إذ كنا نمضي الليل في المستشفي بداخل السيارات، ذلك إننا كنا نحس أن الموت قادم لا محالة، وانه قد يغافلنا في الليل، ويسرق روحها، وحيناً يصعد تيرمومتر الرجاء في نفوسنا، نقول إنها لا شك بدأت تسير في طريق العافية، ثم لا تلبث حتى تعود إلى قبضة المرض اللعين، وفي أيام المأتم ولياليه ما فارق عبد العزيز دارنا لحظة.

وبعد أن فقدت الحياة بالنسبة لي طعماً ولوناً ورائحة، والحزن مطبق، أقامت معنا في البيت خالتي فاطمة وهى أسن من أمي لعلها عصرئذ، قد جاوزت الخامسة والثمانين، وعليها من السنين العجاف اوصاب، تقعد عن الحركة وكان الحزن العميق قد صار بجسدها وروحها عضواً مقيماً، لعله الشيء الوحيد السليم بروحها وجسدها، وسواه أسقام، ورغماً عن كل شئ فان وجودها معنا بالدار كان مما اعتز به شديد اعتزاز، وبعد شهور، ذات يوم، بعد أن رفع الحزن انفه عن نوافذ البيت في العصاصير، وعن شجرة النيم الوحيدة المتفردة الخضرة والحزن، مقامها إلى أقصى طرفه الجنوبي، صباح يوم جمعة كان، اتفقنا أن نلتقي في دارنا عبد العزيز وجماعة منتقاة من الموسيقيين، وكان عبدالعزيز يريد أن يجرى بروفة لأغنية جديدة جلسنا وبدا التدريب نغمة هناك، ونغمة هنا.. تعالج الأوتار اللحن أول شيء خطوة بعد خطوة، ينمو على الوتريات الشجن العجيب، اللحن ينمو تصير الأغنية الجديدة كائناً حياً، نميز الآن وجهها، تتعرف ملامحها، لونها، حرارة جسدها، انتهت صياغة الأغنية بعد منتصف النهار، سألني عبد العزيز عن خالتي فاطمة، قال (الخالة وين؟) قلت ليه (مريضة بالداخل لا تستطيع الحراك) قال على الفور يخاطب الموسيقيين (يا جماعة قوموا معاى) حملوا الكمنجات، وأدوات الإيقاع والنفخ، والأكورديون، لم يسألوا إلى أين، قمنا تبعناه، دخلنا إلى الجناح الشمالي من الدار، هناك غرفة طويلة عريضة، هي بالحق طويلة عريضة، هي اقدم حجرات الدار، مرت عليها أياد الإصلاح، تغير شكلها مرات، نزع سقفها القديم من سيقان شجرة الدوم والبروش، صيروه ألواح خشب، وكمرة حديد، في عهديها القديم

والجديد صمدت الغرفة صموداً جميلاً لنزوات المطر والريح الامدرمانية العنيفة، كانت خالتي راقدة في نفس موقع سرير أمي، عاجزة عن الحركة إلا قليلاً، تفرق الموسيقيون يحملون آلاتهم على العناقريب والبنابر القديمة، بش وجه خالتي كريم الحفاوة، رحبت بالضيوف، انطلقت الآلات تصاحب أغلى حنجرة عرفها الغناء منذ أن سمى هذا الوطن سوداناً، أغنيات قديمات، بل هن أطراف من أغنيات قديمات يستنهضن في وجدان خالتي صور الماضي، أحس إنها طربت، وطرب القوم من شكرها الحميم، هذا هو عبد العزيز، بعضه إن شئت.

كان قوى إيمان أن غناءه قادر أن يجعل في الناس شيئاً من السعاة، لذلك كنت حين أكون معه في مكان السوق، أحس بالناس يحيطون به كل جانب، تعلم أن المشاهير هنا لا يشخصون إلى الأماكن العامة إلا قليلاً، بعضهم يضايقه كثير ضيق أن يتجمع حوله الناس، كان عبدالعزيز نقيض ذلك، يقف في صفوف المخابز مواطناً عادياً بسيط الروح، وحكى انه في عصر انعدام البنزين أمضى الليل في سيارته ينتظر مقدم صباح الأمل، والصف طويل لا تبلغه عين، يتلوى بأشكال عمارة البيوت ويمتد، حدثني شاهد عيان انه غنى للمنتظرين، وانهم صنعوا (حلة) جيدة وأكلوا وطربوا، في وجود عبد العزيز تتحول صفوف الرغيف إلى ضحك وغناء وشيء من المسرة.. تصير بديلاً للرغيف نفسه!

لم يكن هم عبدالعزيز التكسب من فنه، كان يسافر للأقاليم في البعثات الرسمية واجرها ملاليم، ويصل إلى الناس في أقاصي دارفور، وفي كشبان الشمال، وكان أهلنا في الجنوب يودونه كثير ود، ولما فكرنا في مشروع تسجيل أغنيات الحقيبة والذي أجازه الأستاذ محجوب عثمان، وقتئذ لم يناقش عبدالعزيز أولى الأمر في الإذاعة حول مكافأة أو اجر، بل قنع بعائدة زهيدة وكل ما كان يروم أن ينتشر ذلك الغناء النبيل في الناس، وكان سعيداً بما أراد.

حدثني عن أهل جزيرة (.......) قال انه قد أجرى بينهم استفتاء عن اعظم منجزات أو اختراعات الفكر البشرى يقول عبدالعزيز (تعرف الجماعة في الجزيرة كلهم اشتركوا في الاستفتاء، ما خلوا واحد ما اشترك كذا ألف في النهاية وبعد الفرز، اتضح انو أهل الجزيرة كلهم اتفقوا على انو اعظم اختراعين هم الكوتشينة والثلج!! ثم يستطرد عبد العزيز يحدث عن انشغال أهل تلك الجزيرة بلعب الورق، يقول (انعدمت الكشاتين مرة، والسودان كله ما

كان فيه فردة واحدة، خلى جوز. اثنين من الجماعة ناس الجزيرة زهجوا جداً، والوقت بقى ليهم طويل جداً، اتفقوا يمشوا المشرع، وانو يتراهنوا على أسماء الناس البجو مارين، يلعبوا بكاراة بعدد حروف الأسماء، قام واحد قال أنا بسمي عشرة جنيه على اسم أول زول بجي مارى، الثاني قال ليهو كويس أنا براهن معاك بعشرة جنيه برضو على ثاني زول بجي، أول زول جا مارى سألوه اسمك منو؟ قال: أسمي حسن، بقى على كده الأول عنده ثلاثة بنط: ح س ن. انتظروا دقائق جا واحد سمين جداً، طويل، عريض، قام المراهن الثاني قال لصاحبو يابوها حقك راح، لأنو الزول الجهامة ده يكون اسمو مكون من حروف كثيرة سألوا الزول الجهامة: يا خينا اسمك شنو؟ قال ليهم: طه!

وواحدة أخرى حدث عبدالعزيز قال (كان أحد إخواننا المصريين يعمل في السودان زمن طويل جداً، ولما رجع مصر كان بتكلم عن السودان والرخا والحاجات الفيه والخيرات وبعد كده بسنين طويلة رجعوا السودان تاني، كان الراجل المصري ده بحب الجبنة جداً وزمن كان هنا في الأول الكيلو كان بعشرين قرش، طوالى أول ما نزل في المحل بتاعو طلع يشترى جبنة من اقرب دكان الكيلو كان حصل طبعاً طاشر جنيه قام قدم لسيد الدكان خمسة وعشرين قرش وقال ليه: أديني جبنة، زولك صاحب الدكان قطع ليه حتة في راس السكين قدر الطابعة، المصري شالا أكلا على طول وقال للراجل (أوزن لي بقى)!!

وغير هاتين..

إني لن أنسى، وقفته الشامخة في المسارح، والناس آذان وعيون بانتظاره هناك، صلة غريبة بينه وبين الجمهور، أي مكان يكون في أرجاء هذه البلاد كان لأرواحنا المكتظة بالأحزان الجافة مطرة الفرح الأولى، وكان هو الذي اخترع (القعدة) وصير لها نظاماً بديعاً، واليه يكون الفضل في أن نتعلم عنه كيف تكون الصداقة، وكيف يكون الفن والسلوك القويم أمرا واحداً .. عبدالعزيز.